الذكر والأنثى

alkottob.com

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

[آل عمران : ٣٥]

هذا هو الدعاء وهكذا كانت الاستجابة:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه عن الأشياء التى تكون من جهة التربية: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾.

[آل عمران: ٣٧]

كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادى ونذرت ما فى بطنها. وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾.

[آل عمران: ٣٧]

فالحسن هنا زيادة فى الرضا، لأن كلمة « قبول» تعطينا معنى الأخذ بالرضا، وكلمة «حسن» توضح أن هناك زيادة، وذلك مما يدل على أن الله سبحانه قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا، وبشىء حسن، وهذا دليل على أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئاً فوق الرضا، إنه ليس قبولاً عادياً، إنه قبول حسن، ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾[آل عمران: ٣٧] مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها، ألا تربى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت الله. ولكنها نذرت ما فى بطنها من اللحظة الأولى للميلاد. إنها لن تتنعم بالمولود، ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾. وزكريا - عليه السلام-هو

زوج خالة السيدة مريم - رضى الله عنها- بعد دعاء امرأة عمران ، يجىءقول الحق الحكيم:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[آل عمران : ٣٦]

لقد جاء هذا القول منها، لأنها كانت قد قالت إنها نذرت ما فى بطنها مُحرراً لخدمة البيت، وقولها : « مُحَرَّراً» يعنى أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت، لكن المولود جاء أنثى. فكأنها قد قالت: إن لم أُمكّنْ من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق لقد جاءت المولودة أنثى.

لكن الحق سبحانه يقول: **﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾** [آل عمران : ٣٦] وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله تعالى ،ولكنها تريد أن تظهر التحسر، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق؟و يقول الحق سبحانه: « وليس الذكر كالأنثى». فهل هذا من كلامها، أم من كلام الله ؟

قد قالت: **﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾** وقال الله سبحانه: **﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾**.

فكأن الحق سبحانه يقول لها: لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم. أو أن القول من تمام كلامها **﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾**،ويكون قول الحق سبحانه : **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾** هو جملة اعتراضية، ويكون تمام كلامها **﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾** أى: أنها قالت: يارب إن الذكر ليس كالأنثى، إنها لا تصلح لخدمة البيت.

وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر، إنه يتصور أن الحق الحكيم سبحانه قد قال: أنت تريدين ذكراً بمفهومك فى الوفاء بالنذر، وليكون فى خدمة البيت، ولقد وهبت لك المولود أنثى، ولكنى سأعطى فيها آية أكبر من خدمة البيت، وأنا أريد بالآية التى سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر.

إننى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ولأننى أنا الخالق ، سأوجد فى هذه الأنثى آية لا توجد فى غيرها، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق سبحانه.

وطلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية؛ إن القدرة تخلق بأسباب، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق سبحانه هو خالق الأسباب أيضاً.

إذن: فما دام الخالق للأسباب أراد خَلْقاً بالأسباب فهذه إرادته، ولذلك أعطانا الحق عز وجل القدرة على رؤية طلاقة قدرته؛ لأنها عقائد إيمانية، يجب أن تظل فى بؤرة الشعور الإيمانى ، وعلى بال المؤمن دائماً.

لقد خلق الله تعالى بعض الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم، أما خلق الحق لآدم عليه السلام، فقد خلقه بلا أسباب. ونحن نعلم أن الشىء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية، فما دام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجىء منهما تكاثر.

إن الحق سبحانه يقول:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[الذاريات : ٤٩]

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هى الصورة الكاملة ، وهذه الأولى فى

القسمة المنطقية والتصور العقلى ، وأما أن ينعدم الزوجان فهذه هى الثانية فى القسمة المنطقية والتصور العقلى، أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثانى ، وهذه هى الثالثة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى،

أو أن ينعدم الزوج الثانى ويبقى الطرف الأول، وهذه هى الرابعة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى.

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية، وجميعها جاء من اجتماع العنصرين: الرجل والمرأة . أما آدم عنيه السلام فقد خلقه الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته ليكون السبب ، وكذلك خلق حواء من آدم، وأخرج الحق سبحانه من لقاء آدم وحواء نسلاً ، وهناك أنثى - هى مريم- ويأتى منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر. وهذه هى الآية فى العالمين، وتثبت قمة عقدية. فلا يقولنّ أحد : ذكراً ، أو أنثى، لأن نية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكراً ، وشاء قدر ربكم سبحانه أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة، لذلك قال : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾. أى: أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى.

وقالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

[آل عمران: ٣٦].

إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة- بأنوثتها- أن تكون فى خدمة بيت الله، فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة ، عابدة، فسمتها « مريم» لأن مريم فى لغتهم معناها: «العابدة».

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان . إنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابداً، فيجيء الشيطان

ليزيِّن له المعصية. وأرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغ الشيطان، وقد سمتها « مريم» حتى تصبح « عابدة لله » ، ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدى كله لذلك قالت: ﴿ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.

إن المستعاذ به هو الله، والمستعاذ منه هو الشيطان، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله فى تزيين المعاصى ، فهو يدخل مع المخلوق فى عراك، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه فى عراك، ولذلك قال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أى: يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنه « الخنَّاس» . إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله، ولذلك فالحق سبحانه يُعَلِّمُ الإنسان:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾.

[الأعراف: ٢٠٠]

إن الشيطان يرتعد فرقاً (خوفاً) ورعشة من الاستعاذة بالله. وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصى.

وقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ كيف يجىء الرجل امرأته، ومجىء الأهل هو مظنة لمولود قد يجىء ، فيقول العبد : « اللهم جَنِّبْنِى الشيطانَ وَجَنِّبِ الشيطانَ ما رزقتنى» (من دعاء رسول الله ﷺ).

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق ؛ فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذى يأتى بإذن الله . ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ . والذرية قد

يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة « ذرية» تطلق على الواحد وعلى الاثنين، وعلى الثلاثة أو أكثر. والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هى عيسى عليه السلام، وتنتهى المسألة . وبعد دعاء امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ يجيء قول الحق سبحانه:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾.

[آل عمران: ٣٧]

وكلمة « آدم» حينما تتكلم بها تجدها - فى اللغة - مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى سبحانه الذكورة والأنوثة ؛ لأنه من تزاوجهما سيخرج النسل. إذن: فكان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد. فالذكر والأنثى، هما بنو آدم، ومنهما ينشأ التكاثر، لكن العجيب أن الله تعالى حين سمى آدم ونطقناه اسماً مذكراً وسمى « حواء » ونطقناه اسماً مؤنثاً ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وُجِدَ منه الخلق هو «نفس» ، لقد قال الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾.

[النساء : ١]

لقد سمى الحق سبحانه آدم بكلمة نفس، وهى مؤنثة ، إذن: فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن« التذكير» هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث. إن الحق سبحانه يطلق

على كل إنسان منا « نفس» وهى كلمة مؤنثة، وحـينما تكلم الحق سبحانه كلاماً آخر عن الخلق قال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾.

[الحجرات : ١٣]

وكلمـة « ناس» تعنى: مجموع الإنسان. وهكذا نعرف أن كلمة «إنسان» تُطلق مرة على المذكـر، ومرة أخرى على المونث. إذن: فالحق سبـحانه قد أورده مـرة لفظاً مـذكراً، ومـرة أخرى أطـلق لفظاً مؤنـثاً، وذلك حـتى لا نقول: إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط، ولـذلك يؤكد لنا الحق سـبحـانه أنه قد وضع الأسـماء لمسـمياتـها لنتعارف بها:

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾.

[الحجرات :١٣]

ومعنى « لتتعارف» أى: أن يكون لكل منا اسمٌ يُعرَف به عند الآخرين. وفـى حياتنا الـعادية -ولله المثل الأعلى- نجد رجـلاً عنده أولاد كثـيرون، لذلك يُطلق على كل ابن اسماً ليعرفه المجتمع به، والعجيب فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أننا نجد كلمـة « شعوباً» مذكرة وكلمة « قبـائل» مؤنثة. إذن: فلا تمـايز بالأحسن، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى سبحانه يقول:

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾.

[العصر : ١ - ٣]

إذن: فما وضع النساء اللاتى آمنَّ ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا» ولماذا أدخل الله المؤنث فى المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل، والمؤنث جاء منه فرعًا. إذن: فالمؤنث هو الذى يدخل مع المذكر فى الأمور المشتركة فى الجنس.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾.

[البقرة : ٢١]

وهذا يعنى أن « المؤنث» عليه أن يدخل فى تكليف العبودية لله.

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس. وبنوعيه: الذكر والأنثى . وفى الأمر الخاص بالمرأة، يحدد الله تعالى المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾.

[الأحزاب : ٣٦]

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد: الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلاً نجد زوجاً يريد تطليق زوجته، فيأتى الحق سبحانه بتفصيل يوضح ذلك.وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة، فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هو ذا قوله الحكيم:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

[الأحزاب : ٣٢ ـ ٣٣]

إن كل ما جاء فى هذه الآية الكريمة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبى ﷺ، فالخطاب الموجَّه يحدد الأمر بدقة « لستن» ، و«اتقيتن»، و« لا تخضعن»، و « قرن» ، و« لا تبرجن» . والكلام فى هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتى لها بضميرها مؤنثاً.

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق سبحانه يأتى بالأمر شاملاً للرجل والمرأة ويكون مذكراً ، ولذلك فعندما قالت النساء : لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ؟، جاء قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾.

[الأحزاب : ٣٥]

هكذا حسم الحق الأمر ، وقال سبحانه تأكيداً لذلك:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾.

[النساء : ١٢٤]

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان فى وصف واحد هو : **﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾** إذن: فعندما يأتى الأمر فى المعنى العام الذى يُطلب من الرجل والمرأة ،

فهو يُضمر المرأة فى الرجل لأنها مبنية على الستر والحجاب، مطمورة فيه، داخلة معه . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ فالرُكوع ليس خاصاً بالمرأة حتى يقول : « مع الراكعات» ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة، ولذلك جاء الأمر الإلهى لمريم عليها السلام بأن تركع مع الراكعين فى قوله تعالى:

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾.

[آل عمران: ٤٣]

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾.

[النساء : ١]

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ومعنى « اتقوا ربكم» أى: اجعلوا بينكم وبينه وقاية، وماذا نفعل لنتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلهاً ، وتؤمن أنه إله بعقلك، وهو سبحانه وتعالى يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ ولم يقل: اتقوا الله، لأن كلمة «الله» مفهومها العبادة، فالإله معبود له أوامر وله نواه، لم يصل الحق سبحانه بالناس لهذه بعد، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية، والرب هو : المتولى تربية الشىء، خلقاً من عَدَم وإمداداً من عُدْم، لكن أليس من حق المتولى خلق الشىء، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة. ونحن نرى الآن

أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذى صنعه قانون صيانة، فهل يخلق الله سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم : اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم ﴾.

إذن: فالمطلوب منهم أن يتقوا، ومعنى يتقوا: أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهوداً له بها ؟ هو سبحانه يقول: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِى خَلَقَكُم﴾ كأن خَلْق ربنا لنا مشهود به، وإلا لو كان مشكوكاً فيه لقلنا له : إنك لم تخلقنا.

ولله المثل الأعلى: أنت تسمع من يقول لك: أَحْسِنْ مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مُقِرٌّ بأنه صنع أم لا ؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام. إذن: فقول الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم ﴾ فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد، فأراد -سبحانه- أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذى نؤمن به جميعاً- وهو أنه سبحانه قد خلقنا- إلى الشيء الذى يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب» ولم يقل : « اتقوا الله» ، لأن مفهوم «الرب» هو الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْم ، وتعهد، وهو المربِّى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾.

[العنكبوت : ٦١]

إذن: فقضية الخلق قضية مستقرة؛ وما دامت قضية مستقرة فمعناها:

ما دمتم آمنتم بأنى خالقكم فلى قدرة إذن، هذه واحدة، وربيتكم؛ إذن: فلى حكمة، وإله له قدرة وله حكمة، إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾. لو لم يقل الحق سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لما كملت، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾.

[الذاريات :٤٩]

إذن: فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة: هل ﴿ خَلَقَ مِنْهَا ﴾ المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى: من نفس آدم ؟ أناس قالوا ذلك، وأناس قالوا : لا، «منها» تعنى :من جنسها، ودللوا على ذلك قائلين: حين يقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾.

[التوبة :١٢٨]

هل أخذ الله محمداً ﷺ من نفوسنا وكونّه ؟ لا ، إنما هو رسول من جنسنا البشرى، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل؛ لأن خَلْق حواء قد انطمست المعالم عنه، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنساناً، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول، وبعد ذلك تكون حواء مثله، فيكون قوله سبحانه : «خَلَقَ مِنْهَا» أى: من جنسها، خلقها من طين ثم صورّها. . . إلخ؛ ولكن لم يعد علينا التجربة فى حواء كما قالها فى آدم ، أو المراد من قوله : «منها» أى: من الضلع، وهذا شيء لم نشهد أوله، والشيء الذى لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون مِمَّن شهده، وسبحانه أراد أن

يرحمنا من متاهات الظنون فى هذه المسألة: مسألة كيف خُلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها، فالذى خلقك هو الذى يقول لك فاسمع كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبى ؛ ولذلك عندما جاء «دارون» وأراد أن يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه، قالت النظرية الحديثة لدارون: إن الأمور التى أثرت فى القرد الأول ليكون إنساناً، لماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرود ؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون؛ لذلك نقول : هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع إلى من فعل ، والحق سبحانه يقول:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

[الكهف :٥١]

وما دام لم يشهدهم، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فيها ؟ إن أحداً لا يأتى بعلم فيها، وبعد ذلك يرد على من يجىء بادعاء علم فيقول: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ،معنى مضلين: أنهم سيضلونكم فى الخلق؛ كأن الله أعطانا مناعة فى الأقوال الزائفة التى يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ،فقد بيَّن لنا طبيعة من يضللون فى أصل الخلق وفى كيفية الخلق، فهم لم يكونوا مع الله سبحانه ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق؛ فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذى يقول كيف خلقتم وعلى أية صورة كنتم، ولكن من يقول كذا وكذا، هم المضللون ، و«المضللون» هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ولماذا لم

Obeikandl.com

يقل: خلقكم من زوجين ؟ لأنه عندما يردّ الشيء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة، لأنكم مردودن إلى نفس واحدة، أما عن نظرية « دارون» وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين- وخاصة قضية الإسلام- علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن، فقام العالم الفرنسى « مونيه» ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التى يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا، وقال : أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير، هل تُوجِد المصادفة ما نسميه « ذكراً» ثم تُوجِد المصادفة شخصاً نسميه «أنثى» ويكون من جنسه لكنه مختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثانى ؟

كيف تفعل المصادفة هذه العملية ؟

سنُسلِّم بأن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصادفة أيضاً خلقت له واحدة من جنسه، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفى جارف وهو أعنف الغرائز ، ثم ينشأ منهما تلقيح يُنشىء ذكراً كالأول أو ينشىء أنثى كالثانى ؟ أيَّةُ مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة ، هم سموها مصادفة ونحن نسميها الله.

لقد ظن « مونيه» -هداه الله إلى الإسلام وغفر له- أنه جاء بالدليل الذى يرد به على دارون، نقول له : إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ ، وهذه هى العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنها تختلف عنه فى النوع بحيث إذا التقيا معاً أنشأ الله منهما رجالاً ونساءً. إذن: فهذه عملية مقصودة، وعناية وغاية وحكمة، إذن: فالآية الكريمة: ﴿**الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾. جاءت بالدليل الذى هُدِى إليه العالم الفرنسى « مونيه» أخيراً.

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله: «بَثَّ» أى: « نشر» وسنقف عند كلمة «نشر» لأن الخلق يجب أن ينتشروا فى الأرض، كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض.

و «النشر» معناه: تفريق المنشور فى الحيز، فهناك شىء مطوى وشىء آخر منشور، والشىء الطوى فيه تجمع، والشىء المنشور فيه تفريق وتوزيع، إذن: فحيز الشىء المتجمع ضيق، وحيز الشىء المبثوث واسع، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: «وبث منهما» أى: من آدم وحواء ﴿ رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ واكتفى بأن يقول: « نساء» ولم يقل: كثيرات لماذا؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة. وأنت إذا نظرت مثلاً فى حقل فيه نخيل ، تجد كم ذكراً من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين.

إذن: القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مُخصِّب ويستطيع الذكر أن يخصِّب آلافاً ، فإذا قال الله سبحانه: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ﴾ فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيراً، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة؟ لابد أن يكون أكثر، والقرآن يكون أقل كثيراً، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ فلابد أن يكون أكثر، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم هو الله سبحانه ، ولكن إذا نظرت لقوله : «وبث منهما» أى :من آدم وحواء وهما اثنان ﴿ رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ فتكون جَمْعاً، وهذا؛ ليدلك على أن التكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة.

ونريد أن نفهم هذه كي نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق سبحانه، فهو القائل: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر . وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثا ثالثاً ، وكلما امتددنا فى البث تنشأ كثرة، وعندما تنظر لأى بلد من

البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جداً من تعداده الآن، مثال ذلك: كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين، ومن قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل، ومن عشرين قرناً كان أقل، إذن: فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر.

إذن: فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة فى السكان، ونحن نرى ذلك فى الأسرة الواحدة، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله فى عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد. إذن: كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضى يقل؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء.

فعندما يقول الحق سبحانه إنه خلق آدم وحواء، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين، فمن أين جاءوا ؟ الحق سبحانه يبين لنا ذلك بقوله: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ** ﴾ [الحجرات: ١٣] وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضرورى أن تأتى هذه الآية الكريمة كى تحل لنا اللغز فى الإحصاء، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضى قل التعداد إلى أن يصير وينتهى إلى اثنين، وإياك أن تقول: إلى واحد، لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ومن أين جاء الاثنان ؟ لابد أن أحداً خلقهما ، وهو قادر على هذا، ويعلمنا الله ذلك فيقول عز وجل: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** ﴾ ونأخذ من «بث»: «الانتشار» ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع فى حيرة وتقول: نسلسل الخلق حتى يصيروا

اثنين ، والاثنان هذان كيف جاءا ؟ - إذن: لابد أن نؤمن بأن الله سبحانه قد أوجدهما من غير شيء.

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ﴾ لأن النشر فى الأرض يجب أن يكون خاصاً بالرجل، فالحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ انتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾.

[الجمعة : ١٠]

وهو القائل سبحانه:

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾.

[الملك : ١٥]

والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يُسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون، وهى بذلك تؤدى مهمتها.

وبعدما قال: «اتقوا ربكم» يقول: «اتقوا الله» . لقد قدَّم الدليل أولاً على أنه إله قادر، وخلقكم من عدم وأمدَّكم وسخَّر العالم لخدمتكم، وقدم دليل البث فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله، فلابد أن تتلقوا تعليماته، ويكون معبوداً منكم ، أى :مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل، وأنزل الحق سبحانه القرآن كمنهج خاتم ، ويقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ . [النساء: ١].

إنه- سبحانه وتعالى - بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به بيَّن لهم: أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التى تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم.

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً، تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ الحق سبحانه منهم

الدليل، فكونك تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك فلابد أنك سألته بمعظَّم، إذن: فتعظيم الله أمر فطرى فى البشر ، والمطموس هو المنهج الذى يقول: افعل ولا تفعل. والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو، ويطلب حاجة تهمه من آخر، فهو يقول له: سألتك بالله؛ أن تفعل كذا. وما دام قد قال: سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هى أن الله هو الحق، وأنه هو الذى يُسأل به، وبما دام قد سُئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله.

إنكم فى الأمور التى تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام وتقولون: بحق الرحم التى بينى وبينك، أنا من أهلك، وأنا قريبك، وأمُّنا واحدة، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر. ولماذا جاءت«الأرحام» هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسئولية من الفرد على الفرد طافية فى الفكر، فما دمت أنا وأنت من رحمٍ واحدة ، فيجب أن تقضى لى هذا الشىء. إذن: فمرة تسألون بالله الذى خلق، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هى السبب المباشر فى الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق سبحانه:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

[النساء : ٣٦]

لقد ذكر الحق سبحانه الوالدين اللذين هما السبب فى إيجادنا، والله يريد من كل منا أن يبرَّ والديه، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما، وأن يُصعِّد الأمر قليلاً ليعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه.

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، لأن كلمة «اتقوا» تعنى: اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر

الطاعة، واجتناب ما نهى الله عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، والرقيب من « رقب» إذا نظر ويقال: «مرقب»، ونجد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة، حيث يوجد «كشك» مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب. ومكان الحراسة يكون أعلى دائماً من المنطقة المحروسة، وكلمة « رقيب» تعنى: ناظراً عن قصد أن ينظر، ويقولون: فلان يراقب فلاناً أى: ينظره، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إنْ كان مراقباً، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾. فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً -ولله المثل الأعلى.

ونحن نجد الإنسان قد يبصر ما لا غاية له فى إبصاره، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان فى باله. والحق سبحانه رقيب علينا جميعاً كما فى قوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

[الفجر : ١٤]

وانظروا إلى قول رسول الله ﷺ فيما حكاه عن ربه سبحانه:

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».
[السجدة: ١٧].

وبذلك تنتقل الصورة إلى شىء جديد، وهو: التوازن بين أفراد الجنس الإنسانى ، كل هذا الكلام كى يُحفظ الجنس الإنسانى مع بعضه، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعى الجنس الإنسانى، والجنس الإنسانى فيه ذكورة وفيه أنوثة. ونعرف أن كل جنس من الأجناس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس، وفيه شىء مفترق يجعل هذا نوعاً وذاك نوعاً أخر ولو لم يكن

فيه شيء مشترك ، وما دام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة. والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان فى مطلوبات الجنس، وبعد ذلك ينفردان فى مطلوبات النوع، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد ، والأفراد أيضاً ليسوا مكررين، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله زيادة وله تفوّق فى مجال كذا وكذا، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشرى.

وما دام الجنس البشرى قد انقسم إلى نوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء خصوصية. وربنا سبحانه وتعالى لا يأتى- حتى فى البنية العامة- ليجعل الجنسين مستويين فى خصائص البنية، صحيح أن البنية واحدة: رأس وجذع وأرجل ، إنما يميز بنية كل نوع بشىء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز. ولذلك فالذين يقولون : نُسوِّى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم: المرأة لها تكوين خاص، والرجل له تكوينه الخاص، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها - التى لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها - معطلة لا يقوم بها أحد . إذن: فأنت حَمَّلتها فوق ما تطيق وأنت مخطىء؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى.

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً ،وساعة يقسم الجنس إلى نوعين، يبيِّن : تنبهوا إلى أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ما هو؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالَب أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية، الاثنان متساويان فيها، ولا يفرضها واحد على الآخر، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخيص الذكورة وتشخيص الأنوثة فى الأمر الأولىّ للإيمان، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[لتحريم: ١٠].

وهذان رسولان، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد، إذن: فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً. ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

[التحريم : ١١].

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم امرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها:

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾.

[التحريم :١١].

إذن : ففى مسألة العقيدة الكل فيها سواء - الذكورة والأنوثة - فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعزّ على كثير من الرجال. ولنا المثل من زوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» وموقفها فى صلح الحديبية فعندما يأتى الرسول ﷺ ليعقد المعاهدة، ويحزن أصحابه ومنهم عمر - رضى الله عنه- الذى قال: أنقبل الدنيَّة فى ديننا فيقول له سيدنا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-: الزم غرزك يا عمر إنه رسول الله. فدخل رسول الله ﷺ مُغضَباً، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية، لكن رسول الله ﷺ يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها: هلك المسلمون «ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى ؟ فقالت يا رسول الله : لا تلمهم فإنهم

قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبى الله اُخْرُجْ إليهم ولا تكلِّم أحداً كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك».

لقد وقَّع رسول الله ﷺ صلح الحديبية وانتهت المسألة . ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله فى هذه المسألة، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول ﷺ: سأبين لكم: أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم، إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة، أى: ما تكرهونه ويشق عليكم؛ مصداقاً لقول الحق تعالى:

﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾.

[الفتح: ٢٥]

لو تزيلوا أى: لو تميز المؤمنون فى منطقة لعاقبنا الكافرين عقاباً شديداً . إذن: لقد بيَّن لهم العلَّة، فرضى الكل، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا أم سلمة، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأةٍ عقل وتفكير ناضج، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك فى قصة بلقيس، لقد فكرت بلقيس فى الرجل الآتى ليزلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب مُلْك؟ فجاء على لسانها فى القرآن الكريم:

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾

[النمل: ٢٩ -٣٢]

فماذا قال القادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مسألتنا ، وجاء القرآن بقولهم:

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾.

[النمل : ٣٣]

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط ، يحارب أو لا يحارب، لكن الذى يقدِّر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال. نقول لقائد الجند: أنت تنتظر الأمر ، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون في عواقب الأمور؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس: ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ لقد وضعوا الأمر فى رقبتها وهى امرأة ، ففكرت : سأُجرِّب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين؛ فأرسلت هدية له، وقد جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقَّى الهدية:

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾.

[النمل : ٣٦]

فعرفت بلقيس أن المُلكَ ليس هدفه ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة، فقالت : أذهب له وأُسلم ، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت:

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ .

[النمل : ٤٤]

يعنى: أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان؛ فلا غضاضة

ما دامت هى وهو عبيداً لإله واحد، وبلقيس امرأة ولم يحرمها الحق سبحانه من الرأى الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل، وهى عندما ذهبت

ووجدت عرشها وقد جاء به مَنْ عنده عِلْمٌ من الكتاب وأقامه، لقد تركت العرش فى بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها، وكان لابد أن يلتبس عليها الأمر، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾.

[النمل :٤٢]

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة:

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾.

[النمل :٤٢]

هى امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر. لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً فى إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص فى شىء للرجل أنه نقص فيها ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى فى البنية يختلف الرجل عن المرأة؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ولها عاطفة فياضة، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم، إذن: فكل واحد معدّ لمهمة. فلا يقولنّ أحد: أنا ناقص فى هذه ، لكن انظر إلى غيرك ،تجده ناقصاً فى شىء وهو عندك كامل.

ويأتى الدين ليوضح: يا مؤمنون ، الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث والذهب حرام على الذكور وحلال للإناث، أىُّ تدليل أكثر من هذا ؟ لقد حرَّم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأحلَّه للنساء، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرحل، فالمفروض أن الرجل هو الذى يتحرك حركة الحياة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه،

والذى يصقل السيف ويحده، مثل الشجاع الذى يضرب به تماماً . كل له عمل يكمل عمل الآخر، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتَّبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (١٢٤) ﴾.

[النساء: ١٢٤].

وجاءت كلمتا « ذكر» و «أنثى» هنا حتى لا يفهم أحد أن مجىء الفعل بصيغة التذكير فى قوله (يعمل) أن المرأة مُعفاة منه؛ لأن المرأة فى كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً فى مسألة الرجل، وفى ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر.

لكن الأشياء التى تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى». وجاء سبحانه هنا بلفظة «مِنْ» التى تدل على التبعيض، أى: على جزءٍ من كلٍّ فيقول: « ومن يعمل من الصالحات» ولم يقل: « ومن يعمل الصالحات» لأنه يعلم خلقه، فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات، هناك من يحاول عمل بعض الصالحات حسب قدرته. والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه: أن المؤمن لن يعمل الفساد، هذه هى أول مرتبة، وبعد ذلك يترقى الإنسان فى الأعمال الصالحة التى تتفق مع خلافته فى الأرض، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح؛ فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من

التعب عمل صالح، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح.

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح. وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس فى باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة وكذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التى ينتفع بها الناس، وقاموا بها للطموح الكشفى، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التى عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله.

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (١٢٤) ﴾.

[النساء : ١٢٤]

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً ونجد من يقول : من يعمل السوء هو الذى يجب أن يتلقى العقاب ، وتَلَقِّيه العقاب أمر ليس فيه ظلم، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾.

[يونس :٢٧]

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها، وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله، والفضل من الله غير مقيَّد وهو فضل بلا حدود، فكيف يأتى فى هذا المقام قوله تعالى: **﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾**

وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهرى، وفى آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة، وفى شهر آخر لا يعطيه سوى أجره، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل. أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف ، إنه غير محدد ولا رجوع فيه. وهذا هو معنى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ، فسبحانه لا يكتفى بجزاء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، ولا يتراجع عن الفضل ؛ فالتراجع فى الفضل-بالنسبة لله- هو ظلم للعبد. ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر؛ فالبشر يمكن أن يتراجعوا فى الفضل ،أما الله تعالى فلا رجوع عنده عن الفضل.

وهو سبحانه القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

[يونس :٥٨]

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ والنقير هو : النقرة فى ظهر النواة، وهى أمر ضئيل للغاية. وهناك شىء آخر يسمى « الفتيل» وهو المادة التى تشبه الخيط فى بطن نواة التمر، وشىء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه « القطمير».

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى فى عطائه للمؤمنين والمؤمنات من عباده.

❊ ❊ ❊